انتحـــار
«بابيولار»

ظلّت شمسُ ذلك اليوم خلف حجابها متدللة، تهاديت أمام المحل، يقذفني الفتى بحجارة كلماته الرعناء السخيفة، لا أهتم.

أسرع وأنا أشعر كأن جيشًا من النمل؛ يجري تحت جلدي، فيما راحت أعراض الصداع تدبّ في رأسي!

صوت خفيّ يرجوني ألّا أدلف للداخل، أستعيذ بالله، أنفث عن يساري ثلاثًا، صوت انفراج الباب يعلو على صوت دقات قلبي، منتظمة لكن متسارعة، كجواد يعدو في حلبة سباق.

خرجت منِّي التحية تكاد تكون همسًا:

«صباح الخير». ردها عليَّ معاذ وهو يدقق في حاسوبه، لألحقه بسؤالي:

«ما الأخبار؟»، تساءلت في خيفة.

«الشبكة لا تعمل اليوم، والنظام سقط كعادته»، ببرود مصطنع كان ردّه.

لا جديد، الشبكة سقطت كالعادة! فهذا حال الشبكة حتّى منتصف النهار، إن لم يكن معظمه كلّ يوم!

ضاق الهواء بصدري، ونازعت لإدخاله إلى رئتي، لكن من دون جدوى. عملي بالتأمين الصحيّ لم يُشعرني بالراحة يومًا، ولكن ما جدوى هذا الشعور؟ ومتى سأستطيع أن أعاود استنشاق الهواء؟

ولكنه حدث لا أعرف مصدره أو أسبابه، في الوقت نفسه، كنت أثق فيه، ويسيطر عليَّ.

الوعود مؤلمة، والتي لا أحب قطعها للمرضى، لا سيما أنني أعلم في قرارة نفسي عدم تحققها أو الوفاء بها؛ بسبب عدم إمكانية صرف العلاج، أو تحديد موعد عملية؛ فقائمة الانتظار الطويلة جدًّا لا تمنح أغلبهم - إن لم يكن جميعهم - الفرصة قبل فوات الأوان، ما أصعب أن تعلم سوء حالة المريض أمامك، ولا تملك أن تفعل له شيئًا! كم هو مهين ومؤلم أن أنهال عليه بوعود وأنا أعلم أنني كاذبة؛ وأن حياته شارفت على الانتهاء.

يوم آخر سأكون فيه كاذبة، وسأنعت نفسي بالغباء ألف مرة، يوم آخر سيؤنبني فيه ضميري؛ لعدم وفائي بالعهود.

كزجاج مهشم تتحرك شظاياه، وقد يكون دقّ مطارق مستمرًّا في رأسي، كالستار ينسدل؛ ليحول بيني وبين كل رغبةٍ لي في التفكير، تشويش على قدرتي وعلى التركيز.

الألم الأكبر، ذلك الرجل في عمر أبي، وأنا أتخيل أسرته؛ وهم يمطرونني بالدعوات والحَسْبَنة؛ ليس وحدي، وإنما فوق رؤوس العاملين كلهم بهذا المبنى الحكوميّ الكئيب.

أشعر كأني أحمل مائة عام فوق أكتافي، لا مجرد ربع قرن من الزمان.

أنظر إلى بقية مَن حولي. لا أحد يعاني. الكل يضحك. يبررون لأنفسهم أن الأعمار بيد الله، وأن ما باليد حيلة، إلى آخر هذه الجمل؛ التي يربِّتون بها على أنفسهم، ويميتون بها ضمائرهم التي لم تستيقظ منذ أمدٍ بعيدٍ.

الكلُّ يفكر في الغداء، والبيت، والأبناء ورحلة نصف العام وعطل السيارة مجهول الأسباب، الزحام واختناق المرور، عدم الضمير لنقص الملح في رغيف الفول في الصباح!

ماس كهربائيّ يجتاح خلايا مخي.

قرص مهدئ سيكفيني؛ للتغلب على الصداع برأسي، لكنه اليوم فقد هو الآخر مفعوله، لتكتمل منظومة العذاب النفسيّ والإنهاك.

أكره نفسي، وأكره الهواء الذي أتنفسه من حولي؛ فكله رياء وفساد، ولا يزيدني إلا اختناقًا.

أبتلع بقية الأقراص دفعة واحدة، لم أشعر إلّا بالأرض تتزلزل تحت قدميَّ، وأنني أهوي إلى بئر عميقة، لا أصل فيها إلى قرار. لكنني - وبالرغم من ذلك - شعرت بالسعادة لأنني أترك كل هؤلاء من حولي، لا أعبأ إلى أين أنتهي.

أمسح عينيَّ الزائغتين محاولةً أن أرى الأرقام على هاتفي المحمول. بمن أتصل لينقذني مما أنا فيه، ويخلصني من عذاباتي، ويأخذ بيدي حيث أريد؟ تناقض غريب، وقوايَ مني تضيع.

توقفت شراييني فجأةً عن ضخ الدماء، هبطت نسبة الأكسجين، وتكاثرت سحب تحمل الكثير من الضباب، وتلاها انعدام للرؤية؛ لأنني ببساطة سقطت فاقدة الوعي من دون سابق إنذار.

يعلم الله أنني حاولت أن أكون مثلكم، لكن من دون جدوى. لكنّ يأسًا دبَّ في أوصالي، واكتئابًا شديدًا سيطر على تفكيري، شوهني من الداخل وحشر في حلقي ما منعني من التنفس، وأضاء لي طريقًا آخر للحياة!

مهلًا. لا تطلقوا أحكامكم المجحفة وتتهموني بالكفر - حاشا لله - كما رماني من حولي ظلمًا. "من كان منكم بلا خطيئة فليلقني بحجر". فقد علَّمتم أنني أمتلك أسباب السعادة كلّها، ولست بناكرةٍ الجميلَ. سأصف لكم شعوري. ربما تعجزون عن فهمه؛ لأنكم فقط لم تمروا به، وكيف تصبرون على ما لم تحيطوا به علمًا، وقد سبقكم إلى ذلك نبي؟

منذ سنواتي الأولى في هذا العالم، وأنا أعيش في عالم آخر، عالم الأطفال بخياله الواسع؛ الذي أَستمِدّهُ من قصصِ جدتي عن الأمانة والشجاعة والمغامرة، أبطال حكاياتي كانوا قدوتي، كم تخيلت نفسي معهم أو أحدهم. من هنا نبتت وارتوت مشاعري.

أعلم أن الجميع قد ملُّوا اكتئاباتي واعتزلوني، وأصبح حتى الرد على رقم هاتفي عبئًا لا يقوى الكثير على احتماله.

بصوتٍ مرتعشٍ. هل يمكنك القدوم؛ لأخذي من المستشفى؟

ابتلعت أقراصًا منومة!

تأثير الدواء يزداد.

سأموت.

أشفقتُ على نفسي مما آلتْ اليه أموري.

سؤال ظل يتردد على عقلي. متى سنستطيع أن نحتضن أنفسنا بإحساس يكفي لأن نمسح عن قلوبنا أحزانًا لم نتمكن من البوح بها، أو حتى لمجرد أن نشعر بالدفء أو الأمان؟

كم أتمنى لو أصرخ في كلّ مَن حولي، وأعلمهم أن أيًّا منهم لو كان مكاني، ما كان له إلّا أن يتألم كثيرًا من الجرح النازف، وكان رأسه سيمتلئ بالصراخ، فيهرع نحو أشد الثوابت رسوخًا داخل أركان روحه لعله يجد نهايةً لذلك الألم، وبعدها سيتعامل مع رأسه كأنه عضو مبتور منه، سيتحدث له، سيصرخ فيه، ثم سينام وهو يضعه إلى جانب جسده لعله يطيب، ويغمره ذلك السكون الهادئ الذي يغرق فيه جسده في أسرار وبرمجيات، سيصحو وكأن ألف مطرقة قد انهالت عليه كافية بالقدر الذي يلين الحديد، ثمّ ستسحبه تدريجيًّا خطوة خطوة داخل عوالمها

المجنونة التي سيألفها، سيعتاد حديثها؛ حتى تفصله لحظة بلحظة عن عالم البشر. ستوهمه بأنه محور الكون، وبأنه رهن إشارته، سيتحمل الآثام والآلام كلها داخل عقل مريض واحد؛ ليكتشف بعدها أنّه مسجون داخل زنزانة تتسع وتضيق وفق هواء تفكيره؛ ليعود إلى عوالم البشر كالطفل اللقيط الذي نبذه أبواه؛ لتصبح أقصى متعته أن يقبّل رأسَه، ويتركه ينعم في شروده بسلام.

الكلّ ينهال بالأسئلة متصنعًا عدم الفهم:

«ابنتنا صالحة، وتعرف ربها جيدًا، ولا تحاول الانتحار».

روتين ونوبات من الهلع يتخللها هدوء ورجفة وشعور بالبرودة في عز سبتمبر؛ لا يفهمها المحيطون. فقط يروونني غريبة الأطوار. دهاليز كثيرة في عقلي، أخفيتها حتى عن معالجي الوقور في جلسات العلاج النفسيّ...

لحاجةٍ في نفس يعقوب!